ملاحظات حول

توجهات الأدب الجزائري المعاصر

قصة وشعرا ورواية

الحبيب السائح

إن الجزائر ستحتفل في السنة المقبلة، بالذكرى العشرين للاستقلال، وستكون الذكرى معلماً يتم التوقف عندها من أجل تقييم نشاط عشريتين كاملتين في جميع المجالات الاقتصادية- الاجتماعية والثقافية.. لمعرفة نقاط الارتكاز والقوة التي اعتمدتها القوى الحية في تحقيق تلك المكاسب، وتثمير وتطوير هذه النقاط.

وكذلك لمعرفة أسباب بعض الاخفاقات والمصاعب والمشاكل، وتحديد أساليب علاجها ووسائل تجاوزها.

إن فعل الكتابة لا يخرج عن هذا التصور.

لذا، فإنه تطرح الآن على الكتّاب في الجزائر، مهام كبرى، من بينها القيام بعملية تقييم شاملة وموضوعية لمسيرة الأدب الجزائري خلال عشرين سنة (١٩٦٢ - ١٩٨٢).

وهذه، بعض الملاحظات حول توجهات هذا الأدب: قصة وشعراً ورواية.

عوائق تقف في طريق تطور الكتابة:

يمكن القول بأن هناك عوامل موضوعية، وأخرى ذاتية تقف عائقاً في طريق تطور الكتابة الأدبية في الجزائر يجب تجاوزها. من العوامل الموضوعية:

الحالة الاجتماعية للكتاب، والذين في أغلبهم، لا يعتمدون إلا على مواردهم ومبادراتهم الفردية في مواجهة ظروف الحياة الصعبة. لأن وضعية الكاتب الجزائري لا تختلف كثيراً عن وضعية فئات الشعب الكادحة، التي تناضل يومياً ضد أعدائها الطبقيين من أجل حياة أفضل.

إن الكاتب يحتاج إلى أقلام وورق، ووقت وجهد عضلي وفكري، أي يحتاج إلى وسائل الكتابة المادية والأدبية. كما يحتاج إلى الراحة والتشجيع والتكريم، كلما أبدع. (لنا في البلدان الاشتراكية أروع الأمثلة في الاعتناء والاهتمام بالكتاب والفنانين...).

كما يحتاج الكاتب أيضاً إلى الحرية في التعبير عن رأيه، خاصة عندما يكون رأيه بناءً يخدم أهداف الثورة بغض النظر عن وسيلة التعبير التي يستعملها، والفكر الذي يؤمن به، أو المعتقد الذي يعتقده.

لذا فإنه تطرح الآن أمام الكاتب الجزائري، مهمة أن يصل إلى مرحلة ألاّ يضع في حساباته مسائل المراقبة والمقص (Censure). سواء أكانت هذه المراقبة فنية أم اجتماعية أم عقائدية، وذلك حين يكون يباشر عمله الأدبي قصة أو شعراً أو رواية. لأن مراقبة مماثلة تحد بالضرورة من عملية الابداع، وتبطىء التطور نفسه.

إن النضال، بالمناسبة، لتحقيق ذلك، ينبغي أن يخاض ويوجه بصفة موحدة وواعية ضد الأفكار المسبقة وضد التحزب كما ينبغي أن يوجه العمل ضد أعمال التخريب (بأنواعه) الواعية وغير الواعية، والتي تتستر تحت كل الأشكال، وخاصة تلك الأشكال «الأيديولوجية المزعومة» «البيروقراطية» لتقف في وجه الكتاب الجزائريين الذين برهنوا على تعلقهم بأهداف الثورة ويناضلون من أجل تحقيقها.

ثم إن هناك عاملاً موضوعياً آخر هو النقد. إذ بدون حركة نقدية لا يمكن أن تتطور الكتابة. إن الامكانات البشرية متوفرة وهي ذات طاقات معتبرة وشابة. هناك مجموعة من النقاد الشباب الذين يملكون طاقات معرفية وفنية تمكنهم من أخذ دورهم في الساحة النقدية والأدبية. وهم على سبيل المثال: (مخلوف عامر. الطيبي محمد. ربيع القادر. ساري محمد..).

غير أن الذي يؤسف له- ونظراً لبعض العوامل الأخرى- هو أن بعض النقاد السابقين لهؤلاء النقاد الشباب، سكت أو فضل التزام التقية، أو راح في أحسن الأحوال «ينقد» أعمالاً أدبية تتفق وهواه. أما أولئك «النقاد» الذين يلبسون عباءة النقد على أنها عباءة «المدعي العام» فلا ينتظر منهم إلا الرماد الذي تخلفه النار.

لذا، فإنه يقع التفكير والعمل معاً من أجل أن يفتح الطريق واسعاً أمام النقاد الشباب، وأمام كل الارادات الطيبة من أجل نهضة أدبية وفنية شاملة تحقيقاً لأهداف مجتمعنا

المتوجه نحو الاشتراكية.

وبهذا وحده يمكن أن تزول المعوقات الموضوعية التي تقف عائقاً في طريق تطور الكتابة. أما العوامل الذاتية فإنه يمكن اجمالها في ما يلي:

١ - الجهد المتواضع، وأحياناً القليل الذي يبذله الكاتب الجزائري (خاصة الشباب) من أجل تطوير معارفه الثقافية والفنية والفكرية. وهذا لا يتحقق إلا بالقراءة، والقراءة وحدها.

٢ - قلة الارتباط ونقص تجديده دائماً بالجماهير (وهذا ينطبق على جميع الأدباء الجزائريين) وبالطبقة العاملة خالقة المعجزات ومنتجة الخيرات.

إن «الحجار» بنته وتديره أيدي العمال. وكذلك معامل «أرزيو» و «سكيكدة» وآبار «حاسي مسعود» و «حاسي الرمل». إن فندق «الأوراسي» بناه العمال. والعمال هم الذين بنوا ملعب «٥ جوليت» والعمال هم الذين بنوا جامعة «هواري بومدين» للعلوم والتكنولوجيا. وهم الذين يبنون الجامعة الإسلامية بـ «قسنطينة» إن شباب الخدمة الوطنية هو الذي ينجز الروائع مثل «السد الأخضر» والطريق الصحراوي «طريق الوحدة الإفريقية».

وإن الفلاحين «عمال المزارع والمستفيدين من الثورة الزراعية» هم الذين ينتجون القمح والفرينة (الحنطة) الموحولة إلى خبز وحلوى.

إن الجيش الوطني الشعبي، درع الثورة، هو الذي - زيادة على مساهمته في مهمات التشييد الوطني، يحمي حدودنا ويسهر على وحدتنا الوطنية ضد كل المناورات الامبريالية والرجعية.

(هنا بالمناسبة يحضرني قول مشهور للمؤلف المسرحي الكبير «برتولد بريخت»: «من بنى طيبة ذات الأبواب السبعة؟ إن كتب التاريخ تحكي لنا أن الملوك هم الذين بنوها. فهل كان الملوك هم الذين يحملون الحجارة» تلك، إذن، مهمة ملقاة على عاتق الكتاب الجزائريين، ينبغي أن يدركوها وأن يضطلعوا بها خاصة في هذه المرحلة التي تقطعها الجزائر. هذا يعني أن الكاتب الجزائري ينبغي له أن يكون جزءاً لا يتجزأ من القوى الأساسية للثورة، والتي تشكل في مجموعها جبهة معادية للامبريالية.

٣ - نقص التحكم الكامل (خاصة عند الشباب) في وسائل الكتابة، خاصة اللغة. أقصد اللغة العربية الكلاسيكية. لأن كاتباً لا يتقن قواعد لغته لا يمكنه أبداً أن يطورها على أسس سليمة.

لذا، فإن الوعي بضرورة تطوير لغة الكتابة يأتي أساساً من فهم حقيقي ودقيق لهذه اللغة «الكلاسيكية» إذن، هناك مهمة أخرى يضطلع بها الآن الأديب الجزائري هي سعيه المتواصل إلى التحكم في لغته وفهم جوهرها ومدلولاتها وامتداداتها إلى أعماق وجدان شعبه. تماماً، كما عليه السعي إلى فهم الجوهر الإنساني للإسلام وفلسفته. وأخيراً سعيه إلى اتقان مراحل تاريخ شعبه. هذا التاريخ الطويل المليء بالبطولات، خلال عشرات القرون.

يربط الأديب الجزائري بين هذه العامل ليعطي الاجابة عن السؤال الذي يطرح الآن نفسه وهو: هل يكون الأديب الجزائري في مستوى التكفل والاضطلاع بهذه العوامل المكونة لشخصيته الوطنية العربية - الاسلامية واعطائها بعداً قومياً تقدمياً وثورياً، وبهذا يساهم في اسقاط القناع عن الوجه البشع للفئات الظلامية والاستغلالية، التي تحاول أن تحتكر لنفسها حق امتلاك هذه العوامل وتحولها بالرَّجْعَة - إلى سلاح ضد الجماهير نفسها، أم لا يكون؟

إن الإجابة بـ «ينبغي أن يكون...» هي التي تحفز الكاتب الجزائري من أجل أن يعمل على اعطاء اللغة العربية مضمونها الثوري وشكلها المتطور المتنامي.

إن «عبد القادر علولة»، رغم حدوده اللغوية «الكلاسيكية» استطاع بعبقريته الفذة ووعيه الاجتماعي - الجمالي استطاع في مسرحيته «الأقوال» أن يعطي الدليل على كم هو ضروري إعطاء الأهمية البالغة من حيث جانبها الدلالي وذلك من خلال البحث الواعي في موروثنا الشعبي.

إن مسرحية «الأقوال» ينبغي أن تدرس كتجربة لغوية. وأعتقد أن هذه المسرحية ستكون ذات تأثير كبير على أسلوب الكتابة المسرحية خصوصاً والكتابة الأدبية عموماً.

هل هناك كتابة جديدة؟:

الحديث عن كتابة جديدة في الجزائر، يستدعي الإحاطة بجمل النماذج القصصية والشعرية والروائية المعاصرة، والقيام بموازنة فيما بينها، لإيجاد الدوال التي تشير إلى تطور أو عدمه في مجال التجديد من حيث الشكل والمضمون معاً، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا من طرف المختصين والنقاد.

ولكن مع ذلك يمكن القول بأن الأنواع (genres) الأدبية، وبالخصوص القصة القصيرة في الجزائر عرفت تطوراً ملحوظاً في العشرية الماضية (٧٠ - ١٩٨٠). إذ استعملت في كتابتها جملة من الوسائل (فلاش بيك، التقطيع السينمائي، الرمز، الجملة الشعرية، والتوثيق).

وتجاوزت مضامينها (في أغلب النماذج القصصية) مستوى النقد الاجتماعي العاطفي والرومنسي أحياناً إلى مستوى تجسيد الصراع الطبقي الجاري في الجزائر من أجل بناء مجتمع العدالة والحرية والتقدم.

يمكن أن أذكر على سبيل المثال بعض القصاصين الذين حاولوا ذلك: «الأدرع الشريف، عمار بلحسن، واسيني الأعرج، نمسي سعيد، الزاوي محمد أمين، حرز الله محمد الصالح، خلاص الجيلالي.. الخ..» في مجال الرواية قدنجد التجديد، ربما، أكثر أثراً خاصة في مجال توظيف التراث والأسطورة... يمكن أن نذكر هنا أسماء مثل (الطاهر وطار، رشيد بوجدرة، عبد الحميد بن هدوقة..) دون اغفال مساهمات كل من (عبد الملك مرتاض، محمد عبد العالي عرعار، الخ).

أما في مجال الشعر، فإنه رغم الجهد المبذول من أجل التخلص من معاطف (السياب، درويش، البياتي، مظفر، وحتى محمد اقبال عند بعضهم) فإن بصمات هؤلاء ما تزال تطبع أشعار كثير من أدبائنا.

يمكن أن تذكر أسماء - هنا أيضاً - على سبيل المثال: (أزراج عمر، أحمد حمدي، عبد العالي رزاقي، سليمان جوادي، ربيعة جلطي، زينب الأعوج، حمدي بحري.. دون إغفال لدورة الريادة الذي لعبه شعراء بلغوا الشباب في التجربة. على رأسهم الشاعر محمد الأخضر السائحي المعروف بالسائحي الكبير. إلخ..

هذه معاينات (Constatation) قد تحتاج إلى شيء من التدقيق، لذا، فالتحفظ هنا ضروري.

ويظهر بناء على ما سبق ذكره، أن العشرية القادمة (٨٠ - ١٩٩٠) ستعرف تطوراً هائلاً في تلك المجالات كلها، خاصة في مجال الرواية. حيث يلاحظ أن عدداً من القصاصين ينتقل الآن إلى خوض غمار الكتابة الروائية معتمداً في ذلك على تجربته وقراءاته ووعيه الاجتماعي - الجمالي، مستفيداً من الابداعات العربية والفنية العربية والعالمية.

ضمن أي منهج يمكن أن يندرج الأدب الجزائري المعاصر:

إن ما سبق ذكره يبرز بوجه من الأوجه توجه الأدب الجزائري المعاصر.

فبرغم تنوع الأشكال وتعددها، إلا أن هناك قواسم مشتركة بين النماذج الأدبية في الجنس الواحد مثلاً كالقصة. وبين الأجناس الأدبية المختلفة. مثلاً كالرواية والشعر.. بحيث يلتقي أغلبها في التنديد باستغلال الإنسان للإنسان، وفي معاداة الاقطاع وكل أنواع القهر والاضطهاد. وبالتالي يلتقي حول الحلم الكبير والأمل الواسع في تحقيق المثل الانسانية الكبرى.

وإذا تم البحث في مستوى وعي الأدباء، الايديولوجي والفني، تمت معاينة ما يلي:

إن أغلب الأدباء الجزائريين تتقارب نظرته إلى ضرورة البناء الاشتراكي. ويتجسد هذا فعلاً من خلال نماذجهم الأدبية (الزلزال. ما قبل البعد. حرائق البحر. التويزة. وقائع من أوجاع رجل.. الخنازير. الصعود نحو الأسفل. باب الريح. نهاية الأمس. الجميلة تقتل الوحش. الحب في درجة الصفر. قائمة المغضوب عليهم. يوميات متسكع محظوظ. من من يكره الشمس. وجه غير بائس. المطاف بيديك »...[1] إلى آخر ذلك من الروايات والمجموعة القصصية والشعرية التي صدرت لحد الآن...

إضافة إلى أشعار (محمد زتيلي) وأعمال (بقطاش مرزاق) و (أحمد منور) وغيرهم.. وكذلك أشعار وقصص الأدباء الجزائريين المعبرين باللغة الفرنسية.

إن هذا التوجه الايديولوجي - الفني للأدب الجزائري المعاصر يتطور تحت إلحاح ومطالب الجماهير الكادحة في خلق وسائلها التي تعبر بها عن طموحها الروحي إلى فن يستجيب لآمالها ويطور من امكاناتها الانتاجية.

لذا، فإنه يمكن القول بأن الأدب الجزائري المعاصر، في أغلبه، متوجه نحو أسلوب - منهج واقعي اشتراكي. إن الواقعية الاشتراكية كأسلوب - منهج أيديولوجي وجمالي لا تعني أبداً أنها (دوغم) (Dogme) كما يزعم بعض « المثقفوين » (Intellectualiste). إنها بذلك المفهوم تتطور وتنمو وتأخذ بعين الاعتبار الذاتية والموضوعية. والتنوع والتمايز، كما تأخذ بعين الاعتبار واقع كل بلد وتاريخه وتراثه ومتميزاته الأساسية، وتلحم كل ذلك في منظور إنساني يسعى إلى تحقيق جوهر الإنسان أن بعض « النقاد » هنا لا يملكون من الحجج ما يكفيهم لإعطاء الدروس من « وراء البحر » أو من داخل الجزائر.

الأدب الجزائري حلقة من حلقات الأدب العربي:

إن العنصر الذي يعطي الأدب الجزائري تميزه وحرارته ونكهته، بالموازنة مع الأدب العربي عموماً، هو التجربة الجزائرية نفسها من خلال الاحتلال الاستعماري الذي عانته، ونضالات شعبنا المتعاقبة القاسية ضد هذا الاستعمار والثورة العارمة الشاملة ضده في ١٩٥٤ م، وحيازة الاستقلال نهائياً بعد سبع سنوات ونصف، وأكثر من مليون شهيد.

فكان طبيعياً أن تكون التجربة الجزائرية الاقتصادية - الاجتماعية والسياسية معادية الاستعمار والامبريالية لأن الشعب الجزائري الكادح كافح، وبين عينيه ألا يرى نفسه مرة أخرى تحت رحمة مستغليه القدامى سواء الاستعمار في شكله الجديد أم أعوانه: الاقطاع والرأسمالية.

من هذا الطموح يستمد الأدب الجزائري المعاصر موضوعاته، وهو طموح تتقاسمه وتنشغل به جميع الشعوب العربية الكادحة وقواها التقدمية والثورية المناضلة من أجل الاستقلال والحرية والسلم إذن، فلا عجب أن تكون الجزائر، وهي تسعى جاهدة رغم المشاكل والمصاعب المتعددة، إلى البناء الاشتراكي، أن تكون جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية، ولا عجب أن يكون الأدب الجزائري حلقة من حلقات الأدب العربي ذي التوجه التقدمي والثوري.

وهذا يعطي المبررات الكافية لأن يكون الأدب الجزائري حلقة طبيعية من حلقات الأدب العربي يستمد وجوده من أروع ما في أدبنا القديم والحديث،، مطوراً له، مستفيداً من التجارب الإنسانية العالمية الرائعة، منطلقاً من واقعنا الوطني (الجزائري) المتحول والمشحون في عمقه بطاقة دافقة إلى التقدم رغم كل القوى المعاكسة.

---

(١) الطاهر وطار. الأدرع الشريف، عمار بلحسن، الراوي أمين، الأعرج واسيني، عبد الملك مرتاض الحبيب السائح، علاوة وهبي، عمد الحميد بن هدوقة، أزراج عمر، عبد العالي رزاقي، أحمد حمدي سليمان جوادي، رينب الأعوج، ربيعة جلطي، خلاص لجيلالي...

إذن، فلكي يكون الأدب الجزائري حلقة موضوعية من حلقات الأدب العربي، ينبغي تحقيق المعادلة: (التجربة الوطنية في تحولها إلى الامام/ نضال الشعوب العربية الكادحة/ التفتح على التجارب الإنسانية العالمية والاستفادة منها).

وأمام الكاتب الجزائري الآن مهمة أخرى هي أن يكون في الخطوط الأمامية للجبهة العالمية المعادية للامبريالية، من خلال ما يناضلون من أجله داخل الوطن (الجزائر) بواسطة القصة والرواية والشعر.

ما مواضيع الأدب الجزائري المعاصر؟:

الحديث عن المواضيع التي تناولها الأدب الجزائري المعاصر، هو حديث صعب، لأني لست اختصاصياً ولا ناقداً. ذلك، لأن الإجابة تستدعي الاحاطة الشاملة أو شبه الشاملة بكل ما أنتجه الأدباء الجزائريون المعاصرون بالخصوص في الشعر والقصة والرواية. ولمَ لا المسرح كذلك؟ وخاصة الانتاج الذي نشر لحد الآن وهو من حيث الكمية معتبر رغم ظروف الطبع والنشر القاسية التي يعيشها الكتاب الجزائريون.

هذه صعوبة.

وهناك صعوبة ثانية كون الحديث يجب أن يشمل الأدب الجزائري المعاصر المكتوب باللغة الفرنسية. وهذا يطرح اشكالية (Problematique) ذات وجهين، حتى عند الناقد أو المختص إذا لم يتوفر هذا الأخير على الوسائل الضرورية للدخول إلى عالم الأدب المكتوب بكلتا اللغتين. إن الوجهين في الاشكالية هما:

أولاً: إن الأدباء الجزائريين الذين يكتبون باللغة قليلاً ما يطلعون على ما أنتجه مواطنوهم من الأدباء وبعض النقاد باللغة الفرنسية.

فكم من أولئك الأدباء قرأ كتابات رشيد بوجدرة أو محمد ديب أو أحمد عكاش أو بشير حاج علي؟ وغيرها من الأعمال الأدبية والفنية والنقدية؟

والعكس قد يكون صحيحاً على الطرف الآخر تجاه الأعمال المكتوبة باللغة الوطنية. وهو أمر قائم فعلاً.

ثانياً: إنه ينبغي العمل على استبعاد جميع الأفكار المسبقة والضيقة بشأن الموقف من وسيلة التعبير التي حتمتها ظروف تاريخية، والعمل بجد وحزم على اتاحة الفرصة لجميع الجزائريين للاطلاع على أروع ما في أدبنا الجزائري مترجماً من العربية إلى الفرنسية وبالخصوص من الفرنسية إلى العربية. وهذه مهمة من مهام اتحاد الكتاب الجزائريين.

إذن هناك صعوبة في تحديد موضوعات الأدب الجزائري المعاصر بالضبط.

نظراً للأسباب المذكورة. ورغم هذا يمكن القول بأن الأدب الجزائري المعاصر قد تقاسمته موضوعات حول نضال الجماهير الكادحة من أجل التشييد الوطني على أسس اشتراكية. (قصص وأشعار وروايات) حول تطبيق الثورة الزراعية، وحول نضالات العمال في القطاع الخاص ومشاكلهم في قطاع الدولة، وحول نضالات الإنسان الجزائري من أجل حياة أفضل مع اختلاف وجهات النظر والأسلوب ومع تفاوت في التجربة والمستوى الفني والجمالي.

كما تقاسمته موضوعات حول الواقع الجزائري المتحول بمشاكله ونقائصه وميراثه وتراثه (Patrimoine) وتاريخه من خلال النضالات الطويلة الصبورة الصامتة أحياناً والمتفجرة في كثير من الأحيان.

كما تقاسمته موضوعات أهتمت بالبروليتاريا الرثة ومآسيها أو البرجوازية الصغيرة. وهذا لا يعني أبداً أن هذه الموضوعات قد استوفاها الأدب حقها بل إن بعضها ما زال بكرا (Vierge) نظراً للتسطح الذي ظهرت به بعض أعمال في هذا الموضوع أو ذاك (الثورة الزراعية في محتواها الطبقي، البورجوازية الصغيرة، طموحها وانتحارها، الطبقة العاملة، نضالها وتطلعاتها).

كما تقاسمته موضوعات حول نضال حركة التحرر في العالم والشعوب المحبة للسلام: (فلسطين، الشيلي، الصحراء الغربية...) خاصة في الشعر.

وما يشكل قاسماً مشتركاً بين هذه الموضوعات حول النظرة المتقاربة للأدباء الجزائريين (بالعربية وبالفرنسية) هو الانشغال الدائم والنامي بقضايا الإنسان ونضاله من أجل الحرية والديمقراطية والسلام. وهذا ينطلق من توجه شبه عام للأدباء الجزائريين في وجهات نظرهم إلى العالم والصراع الدائر فيه بين قوى السلام وقوى التدمير والعدوان.

وهو ينطلق، كذلك، من وجهة نظرهم غير المتباعدة حول ضرورة الأدب خصوصاً، والفن عموماً، كسلاح ينبغي أن تتحكم فيه الفئات والقوى التي هي في حاجة إليه فعلاً.

غير أن هذا لا يعني أن هناك انسجاماً كلياً بين الأدباء في وجهات نظرهم الفلسفية والايديولوجية والجمالية، لأننا بدأنا في المدة الأخيرة، نشهد نوعاً من «الأدب» ينزع نحو التهميش والتغريب (رواية: الطموح)[1] وأحياناً ينزع نحو الانعزالية (بعض أشعار الغماري) وأحياناً أخرى إلى نوع من الديماغوجية (رواية: الشمس تشرق على الجميع)[2].

تلك، ليست أحكاماً نهائية أو مسبقة، ولكنها معاينات (Contatations).

إن دور المختصين والنقاد، هنا هو كيف يعملون من أجل أن يتتبعوا كيف تطورت مواضيع الأدب الجزائري، ولماذا؟

لأن عملاً مماثلاً جدير بأن يعطي الإجابة الكافية والشافية لجولة طويلة من السمسرة (Spéculation) حول أدبنا الجزائري بلغتيه وفي مختلف مراحله.

الحبيب السائح

---

(١) محمد عبد العالي عرعار

(٢) اسماعيل غموقات